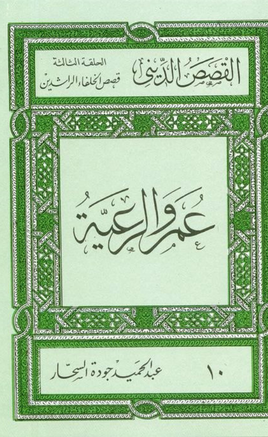

القصص الديني
الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين
عمر والرعية
عبد الحميد جودة السحار
١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنَّ اللّهَ يأْمُرُ بالْعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِي القُرْبَى ، ويَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والْمُنْكَرِ والْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تذكَّرُون » .

(قرآن كريم)

١

كان عُمر بنُ الخطّابِ يخرُج فى اللّيل ، يتفقّدُ أحوالَ المسلمين . وبينما هو سائرٌ وحدَه ، وجد ناسا قد نزلوا فى السُّوق ، فأسرعَ إلى دارِ عبدِ الرّحمن بنِ عوْف ، وطرق الباب ، ففتحتْ له زوجةُ عبد الرّحمن ، وقالتْ له :

ـ لا تدخلْ حتى أدخلَ البيتَ وأجلِسَ مجلسِى .

فظلَّ عمرُ واقفا ينتظرُ الإذنَ لـه بالدُّخول ، فلمّا قالتْ له ادخُل ، دخل فوجدَ عبدَ الرّحمنِ قائما يُصلِّى ، فانتظر حتى انتهَى عبدُ الرحمن من صلاتِه ، وأقبلَ عليه يقولُ له :

ـ ما جاءَ بك فى هذه الساعةِ يا أميرَ المؤمنين ؟

ـ رُفقةٌ نزلتْ فى ناحية السُّوق ، خشِيتُ عليهم سُرّاقَ المدينة ، فانطلقْ فلْنحرُسْهُم .

وسارا ، حتى إذا وصلا إلى السُّوق ، قعدا على مكان مرتفع مِن الأرض يتحدَّثان ، وانقضَى اللَّيل وهما يَحرُسان النَّاس ، حتى إذا أشرقتِ الشمس ، اطمأنَّ عمرُ وترك المكان .

كان عمر يعتقدُ أنَّه مسئولٌ عن النَّاس جميعًا ما دام أميرًا عليهم ، فكان يقسو على نفسه ، ليضمَن لرعيَّتِهِ الأمنَ والسَّلام .

وخرج عُمر ذاتَ ليلةٍ ومعه غلامُه ، وسارا حتى رأيا نارا ، فقال عمر :

ـ إني أرى هؤلاءِ رَكْبًا قَصَّرَ بهم اللّيلُ والبَرْد ، انطلِقْ بنا .

فذهبا يُهَرْوِلان حتّى اقتربا منهم ، فإذا امرأةٌ معها صبيانٌ لها ، وقِدْرٌ منصوبةٌ على النّار ، وصِبيانُها يتلوَّون من الجوع ، فقال عُمر :

ـ السَّلام عليكم .

قالتِ المَرأة :

ـ وعليكَ السَّلام :

ـ أأدنو ؟

ـ اُدنُ بخيرٍ أودَع (أو اذهب) .

ـ ما بالُكم ؟

ـ قصَّر بنا اللَّيلُ والبَرد .

ـ فما بالُ هؤلاء الصِّبية ؟

ـ يتلوَّونَ من الجوع .

ـ وأىُّ شىء فى هذه القِدْر ؟

ـ ماءٌ أُسكِتُهم به حتى يناموا . واللّهُ بيننا وبينَ عمر .

فقال عمر مُعتَذِرًا :

ـ رحمكُمُ اللّه ما يُدْرى عُمَر بكم !

فقالتِ المرأةُ فى إنكار :

ـ يتولّى أمرَنا ويَغفُل عنّا ؟!

فنظر عمرُ إلى غلامِه ، وقال له :

ـ انطلِقْ بنا .

فذهبا يُهرولان ، حتى أتيا دار الدَّقيق ، فأخرج عِدْلًا (جوالقا) ، وقال لغلامه :

ـ احمِلْه علىّ .

فقال الغلام :

ـ أنا أحمِلُه عنك .

فقال عمر :

ـ احمِلْه عليّ .

ـ أنا أحمِله عنك .

فقال له عمرُ فى غضب :

ـ أأنت تحمِلُ وِزْرِى عنّى يومَ القيامة ، لا أمَّ لك ؟!

فَحَمَلَه عليه ، وانطلقا يُهرولان ، حتى انتهيا إلى المرأة ، فألقَى العِدلَ عندَها ، وأخرج من الدَّقيق شيئا ، وجعل ينفخُ تحتَ القِدْر ، وكان ذا لِحيةٍ عظيمة ، فراح الدُّخانُ يخرجُ من خِلَلِ لِحيتِهِ ، واستمرَّ ينفُخُ فى النّار ، حتّى أنضجَ الطعام ، وأنزَلَ القِدْر ، ووضعَ الطَّعامَ فى صَحْفة (شبه طَبَق) ، وقال للمرأة :

ـ أطعِميهم .

وراحتِ المرأةُ تُطعِم الصِّبيان ، فلما شَبِعوا قالت له ، وهى لا تعرفُ أنَّه عُمر :

ــ جزاكَ اللّهُ خيرا ، أنتَ أولَى بهذا الأمرِ من أميرِ المؤمنين .

فقال لها عمرُ أَمير المؤمنين :

ــ قُولِى خيرا . إنكِ إذا جئتِ أَميرَ المؤمنين ، وَجَدْتِنى هناك إن شاءَ اللّه .

ووقف بعيدا ينظُر إلى الصِّبيان ، حتى رأى الصِّبْيةَ يصْطَرِعونَ ويضحكون ، ثم ناموا وهدءُوا ، فقال عمر :

ــ الحمدُ للّه .

ثم التفتَ إلى غلامِهِ ، وقال :

ــ إنَّ الجوعَ أسهرَهم وأبكاهم ، فأحْبَبْتُ أنْ لا أنصرفَ حتى أَرَى ما رأَيتُ منهم .

٣

أجرى عَمـرو بـنُ العـاصِ الخيـلَ بمصر ، فـأقبلتْ فَرَس ، فلما رآهـا النـاسُ قـام محمـدُ بـنُ عمـرو بـنِ العاص ، فقال :

ـ فرسي وربِّ الكعبة .

فلمـا دنـتِ الفـرس ، عرفَهـا صاحبُهـا المِصـرىّ ، فقال : فَرَسِي وربِّ الكعبة .

فقـام محمـدُ بـنُ عمـرِو بـنِ العـاصِ إلى المِصـرىّ ، فضربه بالسَّوْطِ ، وقال :

ـ خُذْهُا وأنا ابْنُ الأكْرَمَيْن .

بلغ ذلك أباه عمرَو بنَ العاص ، فخشِيَ أن يشكوَ المِصرىُّ ما نالَـهُ لأمـير المؤمنـين عمـرَ بـن الخطّاب ، فحبسَ الرّجـل ، ولكنـه هَـرَب مـن سجنِه ، وأتـى عُمر ، فأرسل عُمـر إلى عمـرو أن يأتيَـه مـن فَـوْرِه ،

ومعه ابنُه محمَّد ، فلما مَثلا أمامَ أميرِ المؤمنين ، أعطى عُمَرُ دِرَّته للمِصرىّ ، وقال له :

ـ اضربْ بها ابنَ الأكرَمَيْن .

فأخذَها الرَّجُل ، وضرب محمَّدا ، ثمّ طلب منه أن يضرب بها عمرو بنَ العاصِ نفسَه ، قائلا :

ـ فواللّهِ ما ضَرَبَكَ إلا بفضلِ سُلطانه .

فقال المِصرىّ .

ـ يا أميرَ المؤمنين ، قد ضربْتُ من ضَرَبنى .

فقال عُمر :

ـ أما واللّه لو ضربتَه ما حُلنا بينَـك وبينَـه ، حتى تكونَ أنتَ الذى تَدَعُه .

ثم وَجَّه الكلامَ إلى عمرو ، فقال :

ـ أيـا عَمْرو ، متى تَعَبَّدْتُـمُ النّـاسَ وقـد ولَدَتهُـمْ أمّهاتُهُمْ أحرارا ؟ !

رأى عُمر شيخًا ضريرا يسـألُ على بـاب ، فلمَّا علِم أنَّه يهوديٌّ ، قال له :

ـ مَا أجأكَ إلى ما أرى ؟

قال اليهودِيّ :

ـ أسأل الجزيةَ والحاجةَ والسِّن .

فأخذ عُمـرُ بيـده ، وذهـبَ بـه إلى داره ، فأعطاهُ ما يكفيهِ ساعتَها ، وأرسلَ إلى خازنِ بيتِ المال يقـولُ له :

ـ أُنظرْ هذا وضُرَباءَه (أمثاله) فواللّه ما أنصفْناه إن أكلنا شَبيبته (أى استفدْنا منه وهو شابّ) ونخزُهُ عنـد الهَـرَم . إنَّمـا الصَّدقـاتُ لِلفقُراءِ والمســاكين ، وهذا من مساكينِ أهلِ الكِتاب .

ووضَـعَ عُمر عنـه الْجزيـةَ وعـن ضُرَبائِـه ، فقـد كانتِ الْجزيةُ تُجبَى من غيرِ المُسلمين .

لم يشأ عمرُ أن تأكلَ الدولةُ الرجلَ وهو شابّ ، ثم لا تُنصِفه إذا كبر ، مع علمِه أنّه يهوديّ ، ولم يكتفِ عمرُ بحمايةِ المسنّين ، بل فَرَضَ لكلِّ مولودٍ مائةَ دِرْهمٍ من بيتِ مال المسلمين . سَمِع عمرُ بكاءَ صبيّ ، فتوجَّه نحوه ، وقال لأُمِّه :

ـ اتّقي اللّه ، وأحسِني إلى صبيِّك .

ثم عادَ إلى مكانِه ، فسمِعَ بكاءَه ، فعاد إلى أمِّ الصَّبيّ ، فقال لها مثلَ ما قال ، ثم عاد إلى مكانِه فلمَّا كان من آخِرِ اللّيل ، سَمِعَ بُكاءَه . فأتى أمَّه ، فقال لها :

ـ وَيْحَك ، إنّي أراكِ أمَّ سَوْء . مالى أرى ابنَك لا يقرُّ منذُ الليلة ؟

ـ إنى أُريغُه (أَصْرِفه) عن الطَّعام ، فيأبَى .

ـ ولِمَ ؟

فقالتِ المرأة :

ـ لأنَّ عمر لا يفرِضُ إلاّ للفُطم (المَفْطومين) .

ـ وكم له ؟

ـ كذا وكذا شهرا .

ـ وَيْحَكِ لا تُعْجليه .

ثم صلَّى عمرُ الفجر ، فلمَّا سلَّمَ قال : « يابؤسَى لعُمر ، كم قتلَ من أولادِ المسلمين » ثم أمرَ مناديا فنادَى : ألاّ تُعجلوا صِبيانَكم عن الفطام ، فإنا نفرِضُ لكلِّ مولودٍ فى الإسلام .

ومن ذلك اليوم أصبحَ عمرُ يفرِضُ مائةَ دِرهمٍ لكلِّ مولودٍ فى الإسلام .

٥

ترك جُندُبُ بنُ عمْرِو بنِ حُمَمَةَ الدوْسىّ ابنتَه الصغيرةَ عند عمر ، وخرج إلى الشَّام ، ليُحاربَ مع المسلمين ، وقال لعمر :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، إن وَجَدْتَ لها كفئا ، فزوِّجه ولو بشراك نعله (أى ولو دفع مهرَها سيرَ نعلِه) ، وإلاّ فأَمسكها ، حتى تُلحقَها بدارِ قومِها .

واستُشهدَ أبوها فى حروبِ الشَّام ، فبقيتْ عنـدَ عمر ، تدعوه أباهـا ، ويدعوهـا ابنتَه ، وكـان عمرُ يفكِّر فى إسعادِها ، فبينما كان على المِنبر يومـا ، إذ خَطَرَ على قلبه ذكرُها ، فقال :

ـ من لـه فى الجميلةِ الحسيبةِ بنت جُندبِ بنِ عَمرو ، وَلْيَعْلَم امرؤٌ من هو !

فقام عثمان فقال :

ـ أنا يا أميرَ المؤمنين .

ـ أنت لعَمْرُ اللّه ! كم سُقْتَ إليها (كم تدفع من مهر) ؟

ـ كذا وكذا .

ونزل عـن المِنبرِ ، فجـاء عثمـانُ رضِـيَ اللّـه عنه بمهرِها ، فأخذه عُمـر فـى يـدِه ، فدخـل بـه عليهـا ، فقال :

ـ يا بُنيَّة ، مُدِّى حجْرَك .

فتحتْ حِجْرَها ، فألقى فيه المال ، ثم قال :

ـ يا بُنَيَّة ، قولى اللَّهمَّ باركْ لى فيه .

فقالت :

ـ اللَّهمَّ باركْ لى فيه ، وما هذا يا أبتاه ؟

ـ مَهْرُك .

فَخَجلت ورَمَتْ به بعيدا ، وقالت :

ـ واسوْءَتاه !

ـ احتبسِى منه لنفسِك ، ووسعِّى منه لأهلِك .

والتفتَ إلى حَفصةَ ابنتهِ وقال :

ـ يا بنتاه ، أصْلِحى مِنْ شأنِهَا .

ولما تهيَّأت الفتاة ، أرسل بها مع نسوةٍ إلى عثمان ، فلما خرجن ، قال عمر :

ـ إنها أمانةٌ فى عنقى ، وأخشَى أن تضيعَ بينى وبين عثمان ، فلَحِقهن ، وسار بها ، حتى ضرب على عثمان بابه ، ثم قال :

ـ خذْ أهلَك ، باركَ اللّهُ فيهم .

وعاد مطمئنًا ، بعد أن أدَّى الأمانة .

كان عُمر الإمامَ العادل الذى يَسهرُ على راحةِ رعيَّته ، كان أبا العيال إذا غابَ الرِّجالُ فى الحروب ، والبَلْسَمَ الشّافىَ للفقراء والمُعْوِزين والمُسِنّين وأصحابِ الحاجات .